المقاربة بالكفايات خيار مؤسساتي للتكوين المهني في قطاع الصناعة التقليدية

إلهام الشرقاوي جواد
مستشارة بيداغوجية
مركز التأهيل المهني في فنون الصناعة التقليدية
الرباط

واقع التكوين في مهن الصناعة التقليدية ورهان الإصلاح

منذ أجيال ونقل المعارف في قطاع الصناعة التقليدية يتم عبر الممارسة، إذ يتعلم المتعلم عن طريق الملاحظة وتنفيذ المهمات المطلوبة منه. فهو يقلد ويعيد إنتاج ما يراه ويتدرج في التعلم عبر مهمات تزيد صعوبتها شيئا فشيئا تحت مراقبة المعلم إلى أن يصبح متمكنا من جميع العمليات.

لذلك يبقى الرهان حاليا في إطار هذه المقاربة الفطرية لنقل المعارف هو : كيف يمكن المحافظة على تداول المعرفة بالممارسة في الحيز الزمني الذي تسمح به المدرسة، بحيث إن الصانع، مثلا، عندما يطلب منه أن يدرس، فإنه يعيد إنتاج نمط التكوين التقليدي في الورشة. وبهذا الشكل يصادف، وبسرعة، صعوبات ترتبط بالحدود الزمنية المخصصة للتكوين مقارنة بالوقت الذي يمكن أن يأخذه التعلم في الورشة، والذي قد يبلغ عشر سنوات.

إضافة إلى هذا، يفتقر النمط التقليدي للتكوين إلى :

- هيكلة المعارف ؛
- بلورة استراتيجيات بيداغوجية ؛
- توفير وسائل أخرى ضرورية لاكتساب المهارات بشكل أفضل.

لذلك، ولفهم رهانات إصلاح التكوين في قطاع الصناعة التقليدية، يجب التوقف عند بعض مميزات التعلم التقليدي كما يتم في الورشة : فالمعلم الصانع يلقن تدريجيا للمتعلم جزءا من المعارف مستثنيا تلك التي تميز ممارسته و إنتاجه لكي تبقى سرا محصورا في النطاق العائلي ينتقل من الأب إلى ابنه. وهذه الطريقة تطرح من جهة مشكلا مرتبطا بعدم الاستمرارية في التعلم في حالة ما انقرضت العائلة، ومن جهة أخرى، تجعل المتعلم خاضعا لوتيرة العمل وإكراهات الإنتاج في الورشة. فهي بذلك تجعل المتعلم يكرر ويقلد دون أن يعلل الحركة التي يقوم بها. فتطويرحركة دون دعمها وربطها بمعارف ومهارات أخرى يحد من نجاعة التعلم، بل وقد يشجع أيضا في إطار التقليد على إعادة إنتاج عادات وسلوكات ربما تكون خطيرة على الصحة والمحيط البيئي.

وتبقى تحديات الإصلاح هي :

أولا : العلاقة بين الصناع التقليديين والمكونين حتى لا يتم التفريط، في إطار التكوين المهني،

في المهارات الأصيلة التي تميز الصناعة التقليدية المغربية، وحتى يتم الحفاظ على جمال وغنى الممارسات الفنية مع تشجيع تلك التي تضمن صحة وأمن وسلامة جميع المتدخلين.

ثانيا : العلاقة بين المكون والمتدرب باعتبارها التحدي الرئيس لمؤسسات التكوين المهني، والتي تطرح مسألة الكيفية التي تضمن تحول المكون من دور المعلم التقليدي إلى دور المسهل والمساعد على التعلم إلى جانب المتدرب وبالقرب منه.

وللإجابة عن هذه التحديات، اختار قطاع الصناعة التقليدية مع شركائه الكنديين خوض تجربة إرساء المقاربة بالكفايات. وكان مركز فنون الصناعة التقليدية «التقدم» بالرباط مسرحا لها خلال الثلاث سنوات الماضية (2006 - 2009). وتدخل هذه المبادرة في إطار مشروع إعادة هندسة التكوين المهني حسب المقاربة بالكفايات انسجاما مع توصيات الميثاق الوطني للتربية والتكوين.

لماذا اللجوء إلى الكفايات في التكوين ؟

فرضت الكفاية نفسها في مجال الشغل والمقاولات كمفهوم عوض مفهوم التأهيل. فقد كان إسناد منصب شغل مرتبطا ولمدة طويلة بامتلاك أهلية ما، أي مجموعة من المهارات والتقنيات التي كانت موضوع تكوين رسمي متوج بالحصول على دبلوم معين. وكثيرا ما كان المسؤولون على المقاولات يعبرون عن عدم رضاهم عن الفارق القائم بين التكوينات المقدمة في مركز التأهيل وبين واقع الشغل. فالتكوينات والتأهيلات في نظرهم لا تضمن القدرة الفعلية للأشخاص على المواجهة الفعالة والمبدعة لوضعيات تتسم بالتطور المستمر وتتطلب جهدا متواصلا للتجدد والإبداع.

وقد اتسعت هذه الهوة أكثر بسبب الظروف الاقتصادية التي فرضت نفسها مع التطور التكنولوجي والصناعي المتسارع، والذي يتحكم فيه الطلب أكثر من العرض.

علاوة على التأهيل الذي يشهد على امتلاك الأشخاص لتكوين نمطي موحد، فقد تم الشروع بعد ذلك في إطار المقاولات في تقويم الصفات المتميزة التي يمكن أن يتوفر عليها الشخص بالنظر إلى مساره الشخصي والمهني، والذي يمكنه من الاستجابة لوضعيات عمل متجددة.

فمجموع هذه القدرات المتميزة هي التي أطلق عليها اسم الكفاية. فهي إذن القدرة على تدبير وضعية مهنية مركبة ووحدها التجارب الميدانية هي القادرة على بنائها.

وهكذا، جاءت المقاربة بالكفايات كجواب على حاجة سوق الشغل لید عاملة قادرة على مواجهة الوضعية والتكيف مع المستجدات.

أما فيما يخص قطاع الصناعة التقليدية، فالتعلم التقليدي الحاصل في سياق عملي ومتحرك يتناسب تماما مع مبادئ وأسس المقاربة بالكفايات، إذ تنمي هذه الأخيرة الاستقلالية لدى المتعلم، على عكس المقاربة الفطرية، وتجعل المتدرب قادرا على أخذ المبادرة والبحث عن المعلومة، وتعطيه الوسائل الضرورية ليكون لديه تصور شامل لعمله.

ما هي مميزات المقاربة بالكفايات في بلورة برامج التكوين ؟

تعتبر المقاربة بالكفايات مقاربة نسقية يتعدى تأثيرها مجال إعداد برامج التكوين إلى إعادة هندسة منظومة التكوين المهني في مجملها. فهي تعتمد تخطيطا شموليا ومندمجا لجميع مجالات التكوين انطلاقا من الحاجيات الحقيقية لسوق الشغل، وتدعو إلى التآزر المتواصل بين عالم الشغل وعالم التكوين.

وفي نفس الاتجاه، تخضع بلورة برامج التكوين لمقاربة شمولية ومندمجة انطلاقا من المحددات الأساسية لوظيفة العمل ووصولا الى مقترحات تخص استراتيجيات ووسائل التعلم والتقويم. وهي تتميز بكونها :

- محددة عن طريق الكفايات، ومنها الكفايات الخاصة التي تهم الأنشطة الوظيفية المتعلقة مباشرة بالمهنة، بينما الكفايات العامة أو العرضانية تهم مجالات مختلفة وتمكن المتدرب من التكيف مع وضعيات متجددة ؛
- مقسمة إلى مصوغات، حيث تعتبر كل مصوغة وحدة متكاملة ومتماسكة ومستقلة يمكن أن يسند تدريسها لمكون واحد وتتيح لمجموعة المتدربين فرصة اكتساب كفايات معينة. وتكمن مزايا التكوين بالمصوغات في :
  - مراجعة برنامج التكوين بإعادة النظر فقط في الكفايات المتجاوزة بسبب تطور تكنولوجي مثلا ؛
  - الطابع المستقل لكل مصوغة بحيث يسهل عملية التكوين المستمر لفائدة الموارد البشرية للمقاولات، وذلك بالاستجابة لحاجات محددة، كما يمكن للأشخاص الذين يسعون إلى تحسين مؤهلاتهم الاستفادة من مصوغات معينة مع التصديق على مكتسباتهم أو خبراتهم.
- اعتمادها التقويم المعياري، فالكفايات تتحدد كما أسلفنا الذكر انطلاقا من تحليل وضعية العمل بناء على معايير دقيقة لا تقبل التأويل وتخضع لشروط الدخول إلى سوق الشغل.

وهكذا، فتقويم التعلمات من أجل اكتساب كفاية معينة يتم عبر إعداد موضوع امتحان يأخذ بعين الاعتبار المقاييس المحددة سلفا انطلاقا من حاجيات سوق الشغل.

إن المقاربة بالكفايات تندرج ضمن التيار المعاصر لبيداغوجيا النجاح التي تعني أن المترشح لبرنامج التكوين قادر على النجاح، ويبقى الفشل في حالة حدوثه مرتبطا بسبب ما يتعين تحديده.

من هذا المنظور، يكون المتدرب هو المسؤول الأول عن تكوينه بحيث يتعلم القيام بالمهمة المطلوبة، في حين يكون على المكون أن يضعه ـ قدر الإمكان ـ في وضعيات أقرب ما يمكن من حقيقة ممارسة المهنة.

التجربة النموذجية في قطاع الصناعة التقليدية

شملت تجربة إرساء المقاربة بالكفايات التكوين بمستوى التأهيل وذلك في المجالات التالية: النجارة الفنية، الخزف والحدادة الفنية، حيث تم في هذا الإطار وخلال ثلاث سنوات :

- القيام بتحليل لوضعيات العمل وصياغة مرجعيات الكفايات ؛
- إعداد برامج التكوين والدلائل الداعمة لها ؛
- إرساء وتطبيق برامج التكوين المنجزة.

ولقد تطلب إرساء المقاربة بالكفايات في مركز التأهيل توفير الشروط الملائمة لتطبيق البرامج الجديدة. في هذا الإطار استفاد المتدخلون المغاربة من الخبرة الكندية في مجال تأطير وتكوين المكونين والإداريين. وبرمجت أعمال مندمجة تهم البيداغوجيا والإدارة والموارد البشرية والمادية والمالية. وفتحت عدة أوراش تهم إصلاح البنايات لجعلها تستجيب لمقاييس الجودة كما تحددها المقاربة بالكفايات، وكذا إعداد برامج التكوين وتكوين المكونين.

وككل عملية إصلاح، أتت المقاربة الجديدة بتغييرات في نظام التكوين، وذلك على مستويات متعددة :

1- على المستوى التربوي

جاءت المقاربة بالكفايات باستراتيجيات بيداغوجية ترتبت عنها ممارسات جديدة لدى المكونين داخل القسم والورشة، وتتميز هذه الممارسات بكونها بيداغوجيات نشيطة متمركزة على تحصيل المعارف من جهة، وكذلك على تنمية المهارات وتنمية الاستعدادات والسلوكات الجديدة من جهة أخرى.

كما أن هذه المقاربة تضع المتدرب في صلب منظومة التكوين، بحيث يصبح ضمنها المكون مرشدا للتلاميذ في سياق دال ييسر اكتساب المعارف وتطبيقها وتنمية التعلمات حتى تنقل إلى سياقات خارجية. ولهذا، فالمقاربة بالكفايات تستلزم التوفر على تعليم مؤسس على حاجات المتعلمين بدل محتوى المنقول إليهم، مع إيجاد معنى للتعلمات تجعل المتدرب يشارك بنشاط في بناء كفاياته، أي أن يكون مسؤولا عن تعلمه. في حين ينحصر دور المكون في توفير الجو المناسب وأدوات العمل.

أما الطرق التي ينبغي أن يسلكها المكون في ذلك، فهي عديدة منها : العمل في مجموعات، لعب الأدوار، التمثيل، العرض، حل المشكلات، التعلم التشاركي والتعاوني وكذا النقاشات.

2- على مستوى تنظيم التعليم

- بينت هذه التجربة النموذجية ضرورة استيعاب البعد النسقي لبرنامج التكوين حسب المقاربة بالكفايات، والذي يستهدف التكوين الشمولي للفرد. فبعد أن كان المدرس يقوم بعمله بمعزل عن رفاقه وفي غياب أي تنسيق بيداغوجي، أصبح يحس الآن بالحاجة إلى التشاور معهم سواء

فيما يخص الجانب التقني أو المعرفي لكي يكون التكوين متماسكا وخاليا من التكرار غير المفيد للمتدربين ؛

- أما البعد الزمني، فقد أصبح له معنى آخر لأن كل تجاوز للحيز الزمني المخصص لمصوغة ما، تنجم عنه عواقب سلبية ومعيقة بالنسبة لتدريس المصوغات الأخرى، مما يضع الفرقة البيداغوجية بأكملها في وضعية صعبة. فإذا كان هذا الأمر مسموحا به في النظام القديم، عندما كان المكون يعطي دروسه على طول السنة، فإنه الآن أصبح غير مرغوب فيه.

هذه الاعتبارات التنظيمية تجرنا إلى نقطة أخرى لعلها كانت الأصعب في هذه التجربة، وهي التخطيط والتدوين فيما يخص المصوغات من أجل الإعداد والتحضير الكافيين لتدريسها، سواء من تحديد للوقت أو من الوسائل والإستراتيجيات.

3- على مستوى تقويم التعلمات

تعتمد المقاربة بالكفايات التقويم المعياري الذي كان بمثابة ثورة حقيقية في نظام التكوين بقطاع الصناعة التقليدية، حيث أن إرساءه تطلب مجهودا كبيرا من طرف المكونين والفرقة البيداغوجية. إلا أنه تجدر الإشارة الى أن هذا التقويم يضمن العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص بين المتدربين ويشكل قطيعة مع نظام الامتحانات الكلاسيكي الذي يعتمد على المعدل.

خاتمة

رغم الصعوبات التي صادفها أطر مركز التأهيل في فنون الصناعة التقليدية ومحاولات مقاومة التغيير، فإن العمل ظل متواصلا ولو بوتيرة غير مستقرة تتأرجح بين السرعة تارة والبطء تارة أخرى.

إلا أن القناعة بضرورة الإصلاح والشجاعة والإرادة القوية التي طبعت مجموعات العمل مكنت من مواصلة الأشغال وتحرير الوثائق الضرورية وتهيئ الظروف الملائمة لإرساء برامج التكوين المنجزة وفق المقاربة بالكفايات.